فلسفة الغيبة وسنّة الإيكال الحضاري

يرتكز هذا البحث على مقدمة مفادها، أن المشروع الحضاري الإلهي، والإسلامي تحديدا، يختزن هذه الرّؤية، أن الهداية الإلهيّة، لا بدّ أن تستمر بأرقي تجلياتها وأكملها، في تصويب المسيرة البشريّة، وهو ما يقتضي بيان المعاني الدّينيّة الحقّة بشكل دائم، بياناً لا خطأ فيه، ولا مجافاة لديه، لما هو حق من الدين.

وهو ما يستلزم وجود من يبين معاني الدّين بشكل صحيح، وهو الرّسول(ص) في زمانه، والإمام بعد زمان الرّسول(ص)، وهو ما يصطلح عليه بالحجّة، حيث يكون الحجّة عالماً بالمعارف الإلهيّة، بطريقة لا يشوبها شك أو خطأ، بتعليم من الله تعالى بالإلهام منه. ليعرفه الله تعالى للنّاس، ويكون حجّته عليهم.

وعليه يطرح هذا السؤال، إنه إذا كانت فلسفة وجود الحجّة فلسفة وظائفيّة، تقتضي قيام الحجّة - وهو الإمام المعصوم هنا- بوظائف بيان الدّين الحقّ، ومن ثمّ إقامته "ليقوم النّاس بالقسط"، فلماذا كانت تلك الغيبة للإمام المهدي(عج)؟ ألا يتنافى هذا الأمر مع مبرّرات قيام الحجّة بتلك الوظائف المذكورة آنفاً؟

للإجابة على هذا السّؤال، لا بدّ من مقدّمة مفادها، إن بيان الّدين والأطروحة الإلهيّة، هو من أجل أن تعمل بها الناس، وأن يأخذ الإجتماع البشري بمعانيها الحقّة. وهو ما يوصل إلى تحقيق الأهداف التي يتوخّاها الدّين، من إقامة العدل وإحلال القسط؛ لكن ماذا لو أعرض الإجتماع البشري عن ذلك البيان، وعن الأخذ بتلك الأطروحة الإلهيّة، على مستوى هداية مسيرته وتصويبها؟ وماذا لو وصلت درجة الرّفض لهذه الأطروحة إلى حدّ الكفر بها، والعدوان على من يقوم بها، وهم -في العصر الذي نتحدث عنه- الأئمّة المعصومون من أهل بيت محمّد(ص)، وصولاً إلى الإمام المهدي(عج)؟

هنا، سوف يحرم ذلك الإجتماع البشري من تلك الأطروحة في مرتبتها المعصومة (المتمثّلة بالإمام المهدي(عج) وحضوره)، ليتمّ إعمال سنّة الإيكال الحضاري، ومفادها: إنّ هذه البشريّة لا تريد أن تأخذ بأسباب الهداية الإلهيّة، وأن تعمل بتلك الأطروحة الإلهيّة الحقة المتمثلة في شخص الإمام الحجّة(عج)، بل وتمادت في رفضها إلى حدّ الكفر والعدوان على تلك الأطروحة؛ إذن، سوف يعمل على تغييب تلك الأطروحة في تلك المرتبة. وسوف يتمّ إيكال مسيرة قافلة البشريّة وهدايتها إلى البشر أنفسهم، ليختبروا كل ما لديهم من معرفة وقدرة، وما وصلوا إليه من علوم وخبرة، وليجربوا كل ما في جعبتهم من رؤى في قيادة مسيرتهم وهدايتها، بمعزل عن الهداية الإلهيّة ومعانيها الحقة.

لقد كفرت البشريّة بتلك الأطروحة الإلهيّة. إذن، فلتحرم منها، ولتوكل إلى نفسها، ولتجرب ما لديها.لأن تلك الأطروحة هي من أهم النعم الإلهية، التي يجب أن تشكر. وما شكرها إلا بالعمل بها. أما الكفر بها، فلن يؤدي إلا الى الحرمان منها. وهو ما قد حصل.

وهذا الإيكال له بعدان: بعد عقابي، نتيجة لهذا الكفر بتلك الأطروحة، والعدوان عليها وعلى أئمّتها؛ وبعد وظيفي، يتمثل في تهيئة الظّروف الموضوعيّة لعودة الأطروحة الإلهيّة بأرقى مراتبها، وأقوى قوتها، وأوسع مدى لها، لتملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعدما ملئت ظلماً وجوراً.

إذن، الذي دفع إلى إعمال سنّة الإيكال الحضاري، أنّ البشريّة قد رفضت مشروع الهداية الإلهيّة، ومدرسة الأنبياء والرّسل. بل ومارست العدوان عليها، فكانت غيبة الإمام المهدي(عج) لتقول للإجتماع البشري: إن هذا التّكبّر على الأطروحة الإلهيّة والعدوان عليها، سوف يؤدّي إلى حرمانك منها، وإيكال أمرك إلى نفسك، لتختبر ما الذي سوف تصل إليه، عندما تعرض عن تلك الأطروحة، وتسعى إلى خوض صناعتك الحضاريّة بمعزل عنها.

ولا بد من القول، إن الهدف من إعمال سنة الإيكال الحضاري هذه، هو أن تستنفذ البشريّة كل ما لديها من رؤى حضاريّة، لتكتشف فشل كلّ تلك الرّؤى، في تحقيق مصالح البشريّة وقيمها الحقّة، في بسط العدل وكنس الظّلم؛وفي إقامة القسط وإزالة الجور، وإيصال مجتمعاتها إلى سعادتها، إذا ما فارقت الهداية الإلهيّة.

لقد رفضت البشريّة الهداية الإلهيّة، إذن فلتجرّب طريقها من دونها. حيث ستكتشف قيمة تلك الهداية، عندما تحرم منها. وتعرف أهميّتها، عندما تختبر نفسها من دونها. وتتبيّن مدى حاجتها إليها، عندما تفتقدها، وتعجز عن التغلب على مشاكلها وأزماتها الحضارية. ويتّضح لها أنّها لا تستغني عنها، عندما تغرق في بحور من الظّلم والفساد، نتيجة لإعراضها وتكبّرها، واغترارها بنفسها، والكفر بتلك الهداية، والعدوان عليها وعلى أئمّتها.